

نجمة تشع وسط الظلام

كان من الصعب عدم ملاحظة الثقب الموجود في منتصف البيت، وهو دلالة على سقوط قذيفة هاون فوق البيت الذي تعيش فيه ثلاث نساء أرامل وسبعة من الأطفال.

وتتدفق المياه العادمة خارج البيت من خلال قناة مفتوحة تصب في النهاية في بركة كبيرة يلعب فيها الأطفال الحفاة الذين يرتدون ملابس رثة وممزقة لا تقيهم من برودة الطقس.

وقد تحلقت العائلة حول قطعة من القماش ملقاة فوق الأرضية الترابية تم وضعها لأجلس فوقها. وقد أخبرتني هدى أنها فقدت زوجها وابنها البكر في السنة الأولى من الحرب، وسرعان ما لحق بهما ابنها الثاني تاركا وراءه زوجته وخمسة من الأطفال.

إنه لأمر مذهل معرفة الكيفية التي تمكن هدى من الاعتناء بالعائلة، فالمنطقة التي يعيشون فيها لا توفر أية فرص للعمل، وهي لذلك تعمل على إعداد الخبز في بيتها لتقوم بعد ذلك بمقايضته بالطحين مع الجيران.

وهناك فرن قديم من الطين موجود في أقصى زاوية الغرفة، وتنتشر حوله قطع من الخشب التي تنتظر أن يتم إلقاؤها بداخله. ونتيجة لنقص مصادر الطاقة الرئيسية كالغاز والكهرباء، فإن هدى تجد نفسها مضطرة لاستخدام تلك القطع الخشبية التي تقوم بجمعها من الجوار.

ولدى سؤالي هدى عن التغيير الذي طرأ على حياتها منذ بداية الحرب، أجابت بالقول أن "الحياة كانت صعبة هناك، إلا أنها ليست بدرجة الصعوبة التي نشهدها هذه الأيام. فعندما كان زوجي على قيد الحياة، كانت كافة المسؤوليات ملقاة على عاتقه، أما اليوم، فأنا أعمل من الفجر إلى الليل. لقد أصبحت أشبه ما أكون بالآلة. إنني لا أستمتع بالحياة إلا أنني مضطرة للعمل كيلا لا نحتاج إلى مساعدة الغير. علاوة على ذلك، فإن عدم توفر الخدمات لدينا يجعل من الحياة أكثر صعوبة وشقاء، إلا أننا على الأقل نعتمد على أنفسنا في تدبير شؤوننا هنا".

وفي مستهل إجابتها على سؤال لي حول اختلاف ظروفها المعيشية الحالية عن تلك التي كانت تعيشها قبل نشوب الحرب، نظرت إلي وكأنها لم تفهم السؤال على الرغم من أن نظرة حزينة صادرة من عينيها كانت تنعكس على وجهها بالكامل في الوقت الذي قامت بسحب أحد الأطفال الذين كانوا حولها مربطة على رأسه ووجهه ثم قالت "نحن نعيش على الكفاف، وأنا أعمل طيلة النهار من أجل الحصول على لقمة العيش. وإن لم نقوم بالعمل فإننا نضطر للعيش على بقايا الخبز الجاف أو الطعام البائت مع ما يسمى مجازاً بالشاي ... كما أننا لسنا قادرين على زيارة الطبيب في حال مرض أحدنا".

وفي هذه اللحظة بالذات، تبدأ هدى بالسعال وتتوقف عن الحديث للحظات فيما نظرها يجول بأثناء الغرفة، ثم تنظر نحوي نظرة حزينة وتقول "كانت الحياة في السابق أفضل بكثير مما هي عليه اليوم. ونحن دائماً نقول أن الأمس أفضل من اليوم"، ثم تكمل حديثها وهي تتنهد "إنني أنا والأرامل الأخريات من يفعل كل شيء هذه الأيام، ولا يوجد رجل ليعيلنا. إن الوضع يزداد سوءاً يوماً بعد يوم".

فجأة، تقف هدى على قدميها طالبة مني أن أتبعها لتريني البيت بجدرانها القديمة السيئة للغاية وسقفه المليء بالشقوق. كان البيت أشبه ما يكون بالبيت المهجور حيث الهواء المشبع بالرطوبة، وكان باستطاعتي رؤية الرطوبة بادية على الجدران. وأشارت هدى لي بيدها طالبة مني للحاق بها إلى غرف النوم قائلة "أنظروا إلى طريقة معيشتنا، شاهدوا الفرشات. ولولا ضوء النهار لكننا نعيش حياة مظلمة، فمصباح الوقود الذي نستخدمه قد أصبح مثلي لا يشع في لحظات الظلمة".

وإنني أتخيل هدى اليوم وهي تبدو مشعة للغاية في نظر كافة الأشخاص الذين تعنتي بهم